

الأوان لأن نفكر - حكومة وشعباً - بأشقائنا وأصدقائنا الحقيقيين الذين يستحقون كل دعم ممكن منا، وأما أولئك الذين أنكروا المعروف فسحقاً لهم وبئس المصير.

الفريديون الجدد: محاولة الاكتشاف الحقيقية

ف. دورينكوف

ترجمة: محمد يونس

دار الفارابي، بيروت، 1988، 143 ص

مراجعة: مصطفى أحمد تركي

قسم علم النفس - جامعة الكويت

كان الصراع والجدل الفلسفي والفكري بين الرأسمالية والشيوعية منذ منتصف هذا القرن في بعض جوانبه يدور حول مكانة كل من فرويد وماركس في الفكر العالمي، وخاصة من جانب كتاب الاشتراكية أو الشيوعية، ويحاول هؤلاء تفنيد آراء عالم النفس الشهير وأتباعه وتلاميذه للتقليل من أهميتها للمجتمع الإنساني، وتهافتها، والبرهنة على ضآلة دور فرويد في الفكر الإنساني أمام مساهمات ماركس وفلسفته الاشتراكية، ويُعدّ هذا الكتاب من أفضل ما كتب في هذا الميدان.

ويشتمل الكتاب على مقدمة وأربعة فصول، كل فصل منها مقسم إلى قسمين، وخاتمة.

ويأتي الفصل الأول تحت عنوان: تطور اتجاه الفلسفة الاجتماعية في التحليل النفسي (من فرويد إلى فروم)، ويعالج القسم الأول منه أصول هذا الاتجاه في التحليل النفسي، ويرى فيه المؤلف أن التحليل النفسي في بدايته لم يكن إلا أسلوباً خاصاً لعلاج العصاب، استخدم بدلاً من التنويم الذي كان يستخدم مع المرضى، ولكنه أصبح فيما بعد أساساً لمنطق جديد في علم النفس، فشكل بذلك فلسفة اجتماعية شاملة

يزعم أنصارها شمولية نظريتهم، ويؤكدون أن مناهجهم يمكن تطبيقها ليس لحل المشاكل النفسية فقط، بل لحل المشاكل الاجتماعية أيضاً.

ويرى المؤلف أن تفسير فرويد لظهور الأمراض العصبية وتفاقمها بقمع الأخلاق الاجتماعية وكبحها للغرائز الجنسية، بداية لظهور الاتجاه الاجتماعي داخل نطاق نظرية التحليل النفسي عند فرويد.

إن فرويد فيما يرى المؤلف يستخدم نتائج مستقاة من تحليل سلوك أفراد من المرضى، ويعممها على الجماعات الاجتماعية والعرفية، وعلى شعوب بأكملها.

ويضيف المؤلف في نقده لفرويد أن فكر فرويد يعكس في سياق التاريخ الاجتماعي مزاج الخوف واليأس الذي ساد القطاعات البرجوازية الصغيرة من المجتمع عند نهاية القرن التاسع عشر، إن النتائج الاجتماعية والسياسية التي تترتب على فلسفة فرويد الاجتماعية ذات طابع وصفي في نظر المؤلف - وقد استخدمت ولا زالت من جانب المفكرين البرجوازيين للبرهنة على دوام وشرعية الظلم الاجتماعي، والصراع والجريمة والحرب.

أما عنوان القسم الثاني من الفصل الأول فهو: ظهور الفرويدية الجديدة. ويرى فيه المؤلف أن التناقض بين نظرية فرويد وبين ما توصل إليه علم النفس التجريبي والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع أدى إلى ظهور المدرسة الفرويدية الجديدة في التحليل النفسي في الثلاثينات من هذا القرن، تلك المدرسة التي تميزت بالتأكيد على قضايا الفلسفة الاجتماعية.

ويمثل التيار الفرويدي الجديد عدداً كبيراً من المحللين النفسيين وعلماء النفس والأنثروبولوجيين وعلماء الاجتماع، ومن أبرزهم فروم وكارين هورني وهاري ماثك سلوفان، وأبراهام كاردر.

وكان فروم أول من توصل إلى أن النظرية الفرويدية التقليدية ليست مؤهلة لتفسير العلاقة المتبادلة بين الفرد والمجتمع.

ويرى المؤلف أن أحد العوامل التي أدت إلى ظهور الفرويدية الجديدة قد تمثل في عملية التطويع التدريجي للفرويدية كي تلبي احتياجات المرضى الأمريكيين في الثلاثينات، فلقد أصبحت الفرويدية الجديدة تعبيراً حياً عن «أمركة» التحليل النفسي

التقليدي، وعن تعديله في ظروف الحياة الأمريكية.

إن الفرويديين الجدد لا يرفضون عند إعادة تقويمهم للتحليل النفسي التقليدي إلا تلك التفاصيل التي لا تمس جوهر النظرية، ففي الوقت الذي ينتقدون فيه سماته البيولوجية والجنسية المفرطة التي لا لزوم لها فإنهم يتركون المبادئ الأساسية لنظرية التحليل النفسي، وهي:

1 - فكرة اللاشعور وعلاقته بالسلوك. 2 - مفهوم الكبت. 3 - مفهوم المقاومة والتحويل. 4 - التكنيك العلاجي.

وقد اتجه فروم إلى كتابات كارل ماركس نظراً لسعيه لفهم الأسباب الكامنة وراء ظهور وتطور وتتابع الأحداث التاريخية التي حدثت في عصره مثل الحرب العالمية الأولى، والثورة الاشتراكية في روسيا 1917، والتطورات الثورية في ألمانيا وسيطرة الفاشية على إيطاليا.

ولقد لعبت نظرية ماركس دوراً مهماً في ازدياد اهتمام فروم بالقضايا الاجتماعية الفلسفية.

ومع ذلك يرى المؤلف أنه على الرغم من اعتراف فروم بذلك إلا أنه يسعى تفسير وعرض الأفكار الأساسية للنظرية الماركسية.

ومن الحسنات التي تذكر لفروم من وجهة نظر المؤلف - عند مقارنته بين ماركس وفرويد - أنه أعطى ماركس المكانة العليا، لأنه مفكر أعمق وأشمل من فرويد. أما عن مسوغ الربط بين علم الاجتماع عند ماركس والنظرية التقليدية عند فرويد - فيمكن اكتشافه في رأي فروم من واقع أن قضية الفرد كانت مركزية في كلا المذهبين، وأن الاختلاف بينهما يكمن في القوى الدافعية الكامنة وراء سلوك الفرد، كما وصفها كل منهما، فقد كانت هذه القوى ذات طبيعة اجتماعية تاريخية عند ماركس، وكانت نظاماً بيولوجياً في نظرية فرويد، وهذا ما جعل فروم يرى أن النظريات التي صاغها ماركس وفرويد يمكن أن تكمل كل منها الأخرى.

ويرى المؤلف أن فروم قد تبنى منذ البداية عند محاولته إيجاد مركب من الماركسية والفرويدية طريقة متميزة في تقويمه لنظرية ماركس الفلسفية، فقيام فروم بإيجاد مركب منه مع نظرية فرويد ليس هو الماركسية بل طبعة فرويدية جديدة من

الماركسية، فلقد وصل فروم خلال سعيه «لتطوير» الماركسية والفرويدية عن طريق التركيب بينهما إلى العكس تماماً.

ويكمن الخطأ الرئيسي لفروم - كما يرى المؤلف - في أنه بعد أن اختار طريقة فرويد النفسية ونظرية ماركس الاجتماعية منطلقاً لفلسفته ووضع نصب عينيه توحيدهما، لم يستطع أن يدرك أن هذه مهمة مستحيلة أساساً، طالما أن المذهبين النظريين اللذين ابتكرهما كل من ماركس وفرويد يركزان على منهجين متعارضين على طول الخط.

وفي الفصل الثاني الذي عنوانه: «الإنسان والتاريخ» يعطي المؤلف القسم الأول منه عنوان: المفهوم الفرويدي الجديد عن طبيعة الإنسان، ويرى فيه أنه لم يكن بوسع فروم أن يتجنب النقيضة التقليدية في المجتمع البرجوازي والتي مفادها:

إما أن يشكل المجتمع الإنسان وإما أن يشكل الإنسان المجتمع. وذلك بعد أن جعل قضية الإنسان القضية المحورية في نظريته الفلسفية الاجتماعية.

إن تحليل مفهوم «الموقف الإنساني» الذي يقيم فروم على أساسه نظريته عن ماهية الإنسان يجعل من الواضح أن نظريته تركز من الزاوية النفسية على الغرائز مثله في ذلك مثل فرويد.

ولا يتجاوز فروم إطار المقابلة البرجوازية الدائمة بين مجردين «الفرد والمجتمع» عندما يناقش قضية الفرد.

ويحاول فروم أن يستخدم بعض الأفكار الماركسية في تقويمه النقدي لآراء فرويد عن طبيعة الفرد، ويشير باستمرار في كتاباته إلى ماركس، ومع ذلك فإن فروم - في رأي المؤلف - يشوه بعض أفكار ماركس.

ويرى المؤلف أن التفسير الماركسي لماهية الإنسان الاجتماعية التي تركز على نشاطه الاجتماعي الاقتصادي المنتج في تطوره التاريخي لا يمكننا من التغلب على تصورات التعريفين الجوهرية والنسبية لماهية الإنسان فحسب، بل يمكننا في الوقت ذاته من اكتشاف المصدر الحقيقي لإبداعية الإنسان، ومن تحديد وسائل التغيير الاجتماعي والقوى الدافعة للتقدم التاريخي.

وفي القسم الثاني من الفصل الثاني الذي عنوانه: آراء الفرويديين الجدد عن

القوى الدافعة للتطور التاريخي وأهدافه ومغزاه.

يقول المؤلف إن جهود فروم بوضع مخطط لآلية العلاقات بين الفرد والمجتمع جهود غير مثمرة، فلقد فشل في التغلب على الثنائية في عرض هذه المسألة وحلها، وظلت الطبيعة الجدلية للترابط بينها غامضة بالنسبة لفروم، ثم يعرض المؤلف لنظرية الماركسية في المثل الإنسانية وطبيعة الإنسان الاجتماعية التاريخية، ويرى أنه في الوقت الذي يتناول فروم الطبيعة الإنسانية بوصفها القوة الدافعة وبوصفها هدف التطور التاريخي، فإنه يتبنى في الوقت ذاته هذه الطبيعة الإنسانية معياراً لتقويم الدرجة التي بلغها هذا التطور، ومعياراً لتحديد الأنماط والأشكال التي يتعين وجودها في المرض الفردي والمرض الاجتماعي.

وإذا كان فروم يرى أن القوة الكامنة وراء التطور التاريخي هي التناقض بين الطبيعة الإنسانية المجردة وبين الواقع الاجتماعي، فإن ماركس وإنجلز اختاروا الطبيعة المتناقضة لتطور المجتمع الذي يشكل الفرد جزءاً لا يتجزأ منه، والماركسيون يعتقدون أن التغير التاريخي لا ينبع من الحاجات اللاشعورية المتأصلة في الطبيعة الإنسانية، بل من تلك الحاجات العينية التي تنشأ من الشروط الاجتماعية والظروف التاريخية الجديدة.

وفي الفصل الثالث: التفسير النفسي للتفاعل التاريخي الملموس بين الفرد والمجتمع يتحدث المؤلف في القسم الأول منه الذي عنوانه: المفهوم الفرويدي الجديد عن الشخصية الاجتماعية، عن أن فروم يتجه مباشرة في العديد من أفعاله إلى تحليل شتى الظواهر الاجتماعية بوصفه وسيلة لتفسير العملية التاريخية.

ويرى المؤلف أن الماركسيين لم ينكروا دور العوامل الاجتماعية والنفسية في التاريخ، ولكنهم اتخذوا موقفاً نقدياً حاسماً ضد كل المفاهيم التي تعلق أهمية مبالغاً فيها على هذه العوامل. كما أنهم لا يعترضون على طرح فروم للمشاكل الاجتماعية النفسية المتعلقة بالأنماط التي يركز عليها التفاعل بين الإنسان والمجتمع.

ثم عرض المؤلف لنظرية فروم في العوامل التي تشكل الشخصية الاجتماعية، مثل الدين ونظام التعليم والأدب والفن والأسرة ودورها في التنشئة الاجتماعية. ثم يعلق بقوله إن خطأ فروم يكمن في الواقع أنه ييسر للغاية عملية تكوين الشخصية وتطورها

في المجتمع الرأسمالي، أما الماركسيون فعند دراستهم لأنماط الشخصية الاجتماعية يعتبرون أنه من الضروري أن ندرس أولاً وقبل أي شيء آخر الماهية الطبقيّة للفرد.

ويعطي المؤلف الجزء الثاني من هذا الفصل عنوان: «طبيعة اللاشعور ودوره في العملية الاجتماعية التاريخية». ويرى فيه فروم أن اللاشعور ظاهرة اجتماعية مثل الشعور، ويتحدد من خلال مصفأة المجتمع، وذلك على عكس فرويد الذي يعتبر اللاشعور ظاهرة لا اجتماعية، ومتجاوزة لما هو تاريخي وذات طبيعة بيولوجية، ويرى المؤلف أن فروم تجاهل تماماً عند تقويمه لأصول اللاشعور وطبيعته الأساسية، مبدأ التناول الطبقي في تحليله لدور المجتمع في نشأة اللاشعور، كما أن فروم قد عجز عن تفسير جوهر القوى التاريخية التي لا يدركها الناس والتي تمارس تأثيرها على المجتمع، وذلك لأنه عجز عن فهم المنهج المادي الجدلي للماركسية، فترى الماركسية أنه لا بد من القيام بتحليل أساسي لمجمل العلاقات السياسية والاقتصادية والنفسية المعقدة بين الفئة الحاكمة والفئات المحكومة لكي تحل لغز «اللاشعور الاجتماعي».

ويسترشد المؤلف بطريقة ماركس المادية ذات المنظور الطبقي في تناوله طبيعة المجتمع، إذ يرى أن تعريف فروم لعملية الكبت يمكن تعديله بالقول إن الكبت أو إعاقة المجتمع لفرص نموه وتطوره، نتيجة للتناقض بين الاحتياج لتحقيق هذه الفرص ونمط الإنتاج القائم، ويصل رأى المؤلف إلى مداه فيقول: إن الحاجة للكبت واللامعقول في المجتمع الأمريكي تظهر بسبب وجود طبقات حاكمة وطبقات مضطهدة.

ويرى المؤلف في نهاية هذا الفصل أن السبيل الوحيد المضمون - من وجهة النظر الماركسية - للقضاء على هذا التوتر النفسي، ولحل التناقض الأساسي في نشاط الإنسان هو تجاوز الآفاق الضيقة للبنية الاجتماعية القائمة.

وفي الفصل الرابع والأخير وعنوانه: الأوهام الاجتماعية التاريخية عند فرويد والجدد. يتحدث المؤلف في القسم الأول من الفصل عن السمات الأساسية لنقد فرويد والجدد للمجتمع الرأسمالي، فيقول: إن فروم ينتقد المجتمع الرأسمالي المعاصر في كتاباته من وجهة نظر النزعة الإنسانية الطبيعية المجردة، ويشير إلى عدم مطابقة المجتمع الرأسمالي لمتطلبات الطبيعة الإنسانية، وأن القيم المتأصلة فيها مطلقة في نزعتها الإنسانية، وأن فروم يستخدم مفهومه عن الطبيعة الإنسانية أداة لنقد

هذا المجتمع، كما يقدم تشخيصه لظروف الإنسان على أنها «باثولوجية اجتماعية» و (اغتراب ذاتي - فصامي)، وذلك من خلال دراسته للمجتمع الأمريكي المعاصر وتحديده للصراع بين الحاجات الكامنة في الطبيعة الإنسانية وبين المجتمع الرأسمالي، حيث يلاحظ «الاستلاب» التام الذي يشيع في علاقة الإنسان بعمله وبالأشياء التي يستهلكها، وبالدولة وبذات الفرد، ويرى المؤلف أن فروم مع ذلك لم يستوعب جوهر التفسير الماركسي للاستلاب استيعاباً تاماً، فهو أي فروم - يفهم هذا المفهوم ويفسره من خلال نزعته النفسية الأنثروبولوجية.

ويرى المؤلف أن الاستلاب الشامل الذي يتغلغل داخل حياة المجتمع الرأسمالي الحديث يثبت جوهره المعادي للإنسان والظروف المرضية السائدة فيه، وأن المجتمع الرأسمالي قد فقد آخر ما لديه من أسس معقولة لوجوده.

كما يرى المؤلف أن خطأ فروم الأساسي هو تفسيره لشيوع الاستلاب في المجتمع الرأسمالي على أنه مسوغ للقول بأن الاستلاب سمة للوجود الإنساني تجاوز ما هو تاريخي، أما ماركس فإنه يرى أن أسباب الاستلاب تكمن في الظروف الاجتماعية الاقتصادية العينية التي يعمل في ظلها الإنسان، وينهي المؤلف هذا القسم من الفصل بقوله: فالنقد المجرد للمجتمع الرأسمالي في عصرنا من جانب المثقفين البرجوازيين الليبراليين يُعَدُّ شكلاً من التسامي يقبله هذا المجتمع، ويعتبر نوعاً من الاحتجاج الاجتماعي الموجه، فالتصرف الظاهري المحض للمثقفين الليبراليين البرجوازيين لا يعكس قوتهم بقدر ما هو مظهر لحيرتهم وعجزهم الذي لا ريب فيه عن تغيير أي من الأوضاع القائمة.

وفي القسم الثاني من هذا الفصل الأخير الذي وضع له عنوان: البرنامج الاجتماعي لإعادة بناء المجتمع الرأسمالي، (مثال الاشتراكية: الإنسانية الجماعية).

فيقول المؤلف إن الطريقة الوحيدة البناءة لحل مشكلة الاستلاب الشامل في ظل الرأسمالية لا يأتي في رأى فروم عن طريق الاشتراكية كما يتصورها هو، والتي تشكل في رأيه المثل الأعلى للمجتمع العاقل بل يمكن أن يتحقق عن طريق التحليل النفسي الإنساني رأى من خلال تغيير البنية النفسية لجميع الأفراد الذين يشكلون هذا المجتمع (المرضى). ولأن فروم يتبنى موقف فيلسوف التنوير البرجوازي، فإنه يفترض أنه كي يشعر المجتمع الرأسمالي فمن الضروري أن تنشر أفكار «التحليل النفسي

الإنساني» تلك الأفكار التي تنتمي إلى فلسفة «النزعة الإنسانية المعيارية» عند الفرويديين الجدد. وانطلاقاً من ذلك يؤكد لنا فروم أن القوة «التاريخية» الوحيدة الممكنة القادرة على تغيير «المجتمع الرأسمالي المريض» تتشكل على يد المحللين النفسيين، وذلك باتباعهم لأساليب التنوير العلاجية من أجل القيام بإعادة تربية أخلاقية للشخصية المستلبة، إن فروم - فيما يرى المؤلف - يعزو الدور الحاسم في الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية إلى مجهود المحللين النفسيين وخاصة هؤلاء الذين يمثلون مدرسة التحليل النفسي الإنساني.

ولذلك يكرر فروم في عدة مناسبات تحفظه بألا يكون أي تغيير من التغييرات في المجتمع عن طريق (القوة)، ولذلك فهو يعارض ذلك النوع من الثورة الذي يدعو إليه الماركسيون.

ولذلك يرى المؤلف أن الثورة «الإنسانية التي يطرحها الفرويديون الجدد، لا تدخل في صراع طبقي، فإيمان فروم الساذج - فيما يقول المؤلف - بالتغيير السلمي للرأسمالية ودعايته النشطة لمشروع «أنسنة» للرأسمالية دون أي اشتباك مع علاقات الإنتاج القديمة، يجعله مدافعاً عن المجتمع الذي ينتقده، كما يحاول فروم أن يقنع القارئ الغربي قليل الإلمام بالماركسية أن التفسير الإنساني المجرد والتفسير الفرويدي الجديد للماركسية الذي عرضه في بعض كتبه «بضاعة أصيلة» والفلسفة الاجتماعية الفرويدية الجديدة هي جزء من تيار حديث نسبياً في الفلسفة البرجوازية الحديثة لدحض الماركسية باسم ماركس، والأدهى من ذلك - فيما يرى المؤلف - أن فروم يضع البرنامج الاجتماعي السياسي لماركس في تعارض مع النزعة الإنسانية عند ماركس.

ويرى المؤلف أن الآراء النظرية للفلسفة الاجتماعية الفرويدية الجديدة عند فروم والاستنتاجات الاجتماعية السياسية النابعة منها، والتي يحاول أن يصورها على أنها ماركسية لا تمت للماركسية بأية صلة.

وبعد هذا العرض الموجز للكتاب فالرأي أن الكتاب بدأ بعلم النفس ولكنه انتهى بالفلسفة الماركسية، فعلى الرغم من أن عنوانه علمي بحث، وفي صميم علم النفس، ويتوقع القارئ أن يدور حول أفكار علماء النفس الذين عارضوا فرويد فإن محتوى الكتاب ما هو إلا إبراز لأهمية الفلسفة الماركسية، وذلك من خلال تفنيده

لآراء ونظريات فرويد، ومدرسة التحليل النفسي الحديثة وخاصة اريك فروم، ذلك لأن فروم حاول أن يقيم مركباً من الفرويدية والماركسية، وعلى الرغم من أن فروم أقرب علماء النفس الأمريكيين إلى الماركسية فيما يرى المؤلف نفسه فإنه لم يقنع بهذا الاقتراب، بل وجده فرصة ذهبية لاستعراض الفلسفة الماركسية من خلال هجومه على نظريات فرويد وفروم والفلسفة الرأسمالية.

ويمكن القول: إن ترجمة هذا الكتاب في هذا الوقت جاءت في وقت غير ملائم إذ إن ما حدث في السنوات الأخيرة في دول الاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الشرقية لا يتفق مع كل الأفكار التي عرضها المؤلف في الكتاب عن الشيوعية أو الاشتراكية أو الفلسفة الماركسية وتطبيقاتها في هذه الدول.

Neopatriarchy: A theory of distorted change in Arab World.

النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي

هشام شرابي

ترجمة: محمود شريح

مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1992، 182 ص

مراجعة: زبيدة اشكناني

قسم الاجتماع - كلية التربية الأساسية

إن الكتاب الذي نحن بصدد مراجعته يضم مقدمة وعشرة فصول؛ تتناول المقدمة تحديد بعض المفاهيم التي تدور حولها أطروحة الكاتب؛ وتحديد هدف الدراسة الذي هو الكشف عن أسباب التخلف العربي والطريقة التي من الممكن من خلالها أن نتجاوز ونتغلب على هذا التخلف الذي يُمكّن الكاتب أكثر خطورة من التخلف الاقتصادي والإداري، بل هو تخلف قابع في عمق الحضارة الأبوية، والأبوية